PRINT ISSN: 2537-0685 ONLINE ISSN: 2536-9407

مقالة تربوية : ١

ضد الإنسانية

أ.د. منال عبد الخالق جاب الله
أستاذ الصحة النفسية والتربية الخاصة كلية التربية، جامعة بنها

هل جُنَّ جنون هذا العالم وانهارت انسانيته إلى الهاوية؟ ماهذا الذى نسمع ونرى؟ وهل حقا هناك يوم يحتفل فيه العالم بدعم ومساندة ضحايا التعذيب وتكريم الناجين من أنحاء العالم والتشهير ضد هذا الجرم اللعين؟ نعم... ألا فلتسرع هلم إلينا ياهذا اليوم .

فى السادس والعشرين من يونيو من كل عام يحتفل العالم بالتوقيع على ميثاق الأمم المتحدة خلال منتصف الحرب العالمية الثانية، كونه أول صك دولى يلزم الأعضاء باحترام حقوق الانسان وتعزيزها، والذى دخل حيز التنفيذ فى ١٩٨٧/٦/٢٦ ووقعت عليه ١٦٥ دولة، وقد جاء هذا الاحتفال بناء على اقتراح من الدنمارك التى تضم مقر المجلس الدولى لإعادة تأهيل ضحايا التعذيب، وقد امتثلت الكثير من الدول للعهد الدولى الخاص بالحقوق المدنية والسياسية الذى يحظر التعذيب وسوء المعاملة، وكانت أول الفعاليات فى ١٩٩٨/٦/٢٠ باحتفال مايقرب من ١٠٠ منظمة فى عشرات البلدان، ورغم ذلك هناك تقارير عن التعذيب فى ١٤١ دولة من كل منطقة بالعالم.

ويبقى السؤال: مالذى أحوج العالم إلى مثل ذلك؟ هل يوجد عذر لاستخدام التعذيب بالأساس؟ وهل يوجد مايبرره فى ظل أية ظروف؟

ربما يكون الوقت مناسبا لنتعرف على تاريخ التعذيب فى العالم، حتى لا نفزع ونأسى وتتقطع قلوبنا فى كل مرة نسمع فيها قصة جديدة من قصص التعذيب.

التعذيب... قديم قدم حكاية ابنى آدم وحديث الساعة هذه الآونة، ولن تكون الحالة السورية هى القصة الأخيرة، فالشر متأصل فينا وبيننا، ولسنا نعفى أنفسنا إن جزعنا وفزعنا لهول مانرى ونسمع، وإنها لمفارقة عجيبة أن المنكل به ضحية التعذيب قد ينقلب إلى جلاد يستخدم ذات الوسائل للتنكيل بضحايا جدد، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

مامن وصف يمكن اعتباره ميثاقا للضراوة وسجلا للوحشية – تلك التى تُقترف باسم الدين والعدالة- من ذلك الذى يسرده تاريخ التعذيب ووقائعه المرعبة، والتى إن وقف البشر أمامها لأدركوا أنهم ماعادوا بشرا- ولا يتسع المقام هنا – لكن التاريخ خير شاهد.

خير شاهد يخبرك من أضل سبيلا... هذا الذى يجرد ضحيته من انسانيته بشكل كامل، ويُسكتَ عندئذ ماتبقى من صوت ضميره وشيئا من شعور بالذنب، ولسان حاله يقول أنه ليس وحشا ينقض على فريسته، وقد سمعنا أحد الناجين يقول: "قد كنا نحاول أن نوضحَ لهم أننا بشرٌ" وهو مايفسر شرح بلوم واصفا إياه بالوهم إذ يقول: "تستند أسوأ أشكال القسوة إلى تجريدنا للآخرين من طابعهم الانسانى".

لقد دخل الأوربيان الفرنسى الماركيز دوساد والنمساوى فون مازوش من أوسع أبواب التاريخ (فى الطب والأدب والمسرح)، إذ عكست كتاباتهما جانبا من سيرتهما الذاتية: شذوذ وتطرف، وخلدها مصطلحان شهيران هما: السادية والمازوشية، وامتلأت سجلات الكتب بصفحات سوداء عن جرائم نكراء تصور أبشع صور القتل والتعذيب التى تقشعر لها الأبدان، فلا الأديان هذبت النفوس، ولا الحضارة خلصتها من معدنها الوحشى، بل ظلت تتحين الفرص لتكشف عن همجية قاسية.

أتكلم هنا عن تجربة هى الأشد وطأة وإيلاما- فى رأيى- وتبعاتها ثقيلة على الروح ومنهكة للجسم، وما من آلية تبرر الفعل وفداحة مآله. وإزاء سيكولوجية التعذيب ومحاولة تفسير العمليات النفسية التى تقف خلفها، بما فى ذلك المرجعيات السياسية والاجتماعية بل والدينية، من المرجح مقابلة فئات تشخيصية للأعراض والسلوك، ومحكات يتم استيفاؤها دون تطابق من مجتمع إلى آخر، وفقا لأولويات تنتظم لحساب احتياجات وتوقعات وأهداف خاصة وأخرى عامة.

قد تكون القسوة والوحشية صفة شخصية، وقد تكون حالة اجتماعية، والمهم هو أن تُضفى عليها الشرعية فى كل الأحوال، ولنتذكر تجربة "سجن ستانفورد ١٩٧١" ، ففيها إضافة لبعد نفسى مرعب لفهم سلوك السجانين، والتى نظرا لوحشيتها تم إيقافها بعد أن خرجت عن السيطرة خوفا من ضرر بالغ بأجسام وعقول المشاركين الذين كانوا جميعا من المتطوعين، وقد فسر زيمباردو ماحدث خلال التجربة وفقا لما يعرف فى علم النفس الاجتماعى بفقدان الهوية الذاتية أو الوعى الذاتى فى سياق الحياة الاجتماعية Deindividuation ، حيث يصبح مصدر الوعى بالذات هو الدور الذى نقوم به لا المرجعية والمعايير الأخلاقية، وهو مايصيب الأفراد والجماعات والحشود فتندفع للنهب والسلب متى سنحت لها الفرصة دون تفكير فى العواقب أو المسؤولية، وقد تم استنساخ هذه التجربة بعد نصف قرن مرة أخرى دون وجود تغيير يُذكر بنتيجتها، ثم أعادتها إحدى جامعات هولندا ، وكان المشاركون دوما على استعداد لتعذيب الطرف الآخر رضوخا للأوامر وإن تعارض ذلك مع عاطفتهم وأخلاقهم، وهكذا نفقد البوصلة الأخلاقية، ويلوح فى الأفق شبح التعذيب والانغماس فى الوحشية ومعاداة المجتمع.

ويالفرط الأسى إذ نسمع أن بعض الأطباء وعلماء النفس يشاركون فى تصميم بعض طرق وأساليب التعذيب على نحو مبتكر، اعتمادا على الضرر النفسى إلى جانب العنف الجسدى، إذ يتيح المزج بينها عذابا لا ينتهى، ولست هنا بصدد استعراض هذه الطرق والأساليب على مافيها من وحشية تفوق التصور، لكننى أتذكر ماخلص إليه الفيلسوف الفرنسى باسكال العام ١٦٥٨:" البشر هم مجد هذا الكون وهم غثاؤه وحثالته كذلك"، يحبون ويكرهون، يمدون يد السلام ويطعنون بالسكين.

إن الحالة التى أستهدف تفسيرها تبدو محيرة للوهلة الأولى، لكن السؤال ونحن فى نهاية الربع الأول من القرن الحادى والعشرين: هل يمكن تقسيم البشر إلى قساة وطيبين؟ أرانا لا نُحجِم بعضنا عن ممارسة السادية بشكل يومى، معارك ومشاجرات وعنف وعدوان ومتعة دموية، وتصيد ضحايا عبر الإنترنت، وتنمر بالزملاء، وألعاب الكترونية قاتلة، وتحرش عمدى، أما السيكوباتيون فيذهبون أبعد من ذلك بكثير دون خوف ولا ندم ولا شفقة، بل ويقاومون ويراوغون ليظهروا بمظهر جيد.

لعلها آلية تكيف بدأت بذبح الحيوانات لأكلها بعد صيدها، ولعلها الطريق الوحيد لنيل القوة وفرض السطوة، وأخيرا يعتبرها البعض سبيلا للبقاء على قيد الحياة، وكما قال ميكافيللى:" الاضطرابات والفوضى من صنع الزمن لا البشر"، كما قال أينشتاين:" الأشخاص المزعجون بوجه عام يقودون حركة الابداع والابتكار" ، وقيمة ذلك تتوقف على حسابات المنافسة والتلاعب والمناورة وكسب الصراع بل والارتقاء إلى الصدارة.

التعذيب صناعة بشرية باقتدار.. وبقدر ماكان ينبغى أن يحظى المرء من أخيه بالعدل والاحترام والتكريم بقدر مايضرب التعذيب عرض الحائط بكل ذلك منتهكا قدسية الحياة واستحقاقية الوجود، وخلاصة ماسبق أنها سادية تلقى بنفسها فى أوزار المسايرة والطاعة العمياء، بل ويُغلفها فى الأغلب غباء وجمود وانعدام شعور، وانتهازية وسيكوباتية لاتعرف لغة القانون ولا الأخلاق، بل تعال وغطرسة واستباقية عداء. ويذكرنى ذلك بمقولة نيتشه:" إنه حيث الحياة هناك الرغبة، ولكنها ليست الرغبة فى الحياة، بل الرغبة في امتلاك القوة" ، الكل يحارب سعيا للسيطرة وفرض الاستعلاء. ياللعار... بداخل كل منا جلادٌ يتوارى، ساكنٌ حتى تتاح له الفرصة، وأشد مايحزن أن يحدث ذلك بكل سهولة عندما توجد سلطة عليا تدعم ذلك وتُضفى عليه المقبولية، فينطلق الوحش دون قيود فى حبٍ مطلقٍ للسيطرة واستعداءٍ للشر والقسوة، بل ويالللحسرة يمارس كل ذلك بإصرار وتفنن وتلذذ:

- هوس بالعنف وسادية لاتشبعُ إلا بسحق الضحايا.
- انحطاط لم يكن ليجد مكانه إلا بانعدام الضمير والأخلاق.
- قيم مضادة تستوجب التعذيب بشكل يومى تكرارى حتى الاعتياد.
- تعليق الشعور بالذنب وإسباغ المشروعية على الفعل كواجب نبيل يخدم قضية.
- بلوغ الانتصار فى معركة إخضاع الضحية وقتل ارادته اختبارا للقوة واطلاق العنان للجبروت.
- إثبات التحدى المهنى وجدارة النجاح والغضب الجامح إن واجه الفشل الذى يعكس عجزه الدفين وخواء كيانه.

تبدأ رحلة التعذيب فردية بالمقام الأول، فكل ضحية له ماينا سبه تدرجًا إلى انهيار المقاومة وفقد الارادة وتمنى الموت بدلا من التعذيب. صدمة صامتة وندبة خفية وانقطاع عن الحياة.. هذا هو حال الناجى وماهو بناجٍ، إقصاء وعزل، وصمة تتطلب إعادة تأهيل حتى لاتكون النهاية هى الإقدام على الانتحار.

إن للتعذيب آثارا مدمرة بعيدة الأجل، فالجلاد لا يتوقف إلا عندما يكتفى أو عندما يكون منشغلا، وتلك بعض عواقب التعذيب التى لا يمكن حصرها لأن المعَذَّبَ يعرف يوما بعد يوم أنه لاقدسية ولا مكانة ولاقيمة يمكنه الاحتفاظ بها:

- إعاقات جسدية وفقد حواس وتشنج عضلى وآلام من كل الأنواع وإصابات بالدماغ والأنسجة والجلد والأطراف.
- مشكلات فى الذاكرة والانتباه ناهيكم عن ألم الذكرى، وقهر الانشغال واستعادة التفاصيل.
- انسحاب وعزلة ولا مبالاة وعدم قدرة على الاستمتاع.
- غضب وعدوان ورغبة فى الانتقام.
- نوبات قلق مفاجئة ورهاب واضطرابات عصبية ونفسية وكرب وصدمة و وصمة.
- اكتئاب وحالات تشبه الذهان وقمع الادراك الحسى.

- اضطهاد وهلاووس ومحاولات انتحار.
- خدش الحياء والاغتصاب وتحطم الهوية الذاتية، وفقدان القيمة والمعنى والأمن الذاتى وخواء الوجود.

عندما يخرج الناجون من التعذيب بعد عشرات السنين، ويشاهدون وجوههم لأول مرة فى المرآة، وعندما يبحثون عن الأهل والعائلة ولايجدونهم، وعندما تذهلهم شواهد التغيير والتطوير التى لحقت بالشوارع والطرقات والسيارات ووسائل الاتصال، فهل يمثل كل ذلك أهمية بعد أن فقدوا جزءا من روحهم، وماعادوا يعرفون كيف يكون الفرح وكيف يكون الضحك، بل كيف تكون الحياة من جديد.

يحتاج الناجون إلى فضاء رحب يتلقى عذاباتهم وإلى دعم ومساندة، بل وشجاعة وتكييف من أجل تضميد جراحهم واستعادة أنفسهم، وتصبح رحلة علاجهم مغامرة مرهقة قد يسقط فى قاعها البعض منهم، وقد ينجو البعض وهم من يكون علاجهم صعبا نظرا للرعب الذى يصاحب إعادة التعامل مع الخبرات السابقة، ولأن الشفاء يكون مستحيلا على نحو تام.

وإلى جانب العلاج بالعقاقير والمهدئات والمنومات تكون الأهمية لإعادة بناء الشخصية وسماع الرواية والمجازفة بالوصول إلى معنى جديد والبقاء على قيد الحياة . ويجب أن يتلقى الناجون رعاية طبية أولا، وتعويضا ماديا، ومشورة نفسية، وعلاجا وإعادة تأهيل، وبرامجَ لاستعادة الاندماج فى المجتمع، كى يلوح فى الأفق فجر جديد، يتعافى فيه المعَذَّبُون، وتتحول المحنة إلى منحة، ويشارك فى إعادة التأهيل والتأهيل المستمر الأطباء والأطباء النفسيون، والمتخصصون فى تقديم الخدمة النفسية، والممرضون، والمتخصصون فى العلاج الفيزيائى، ورجال الدين، والمتطوعون من الجهات الوطنية ومراكز الدعم النفسى والاجتماعى، والمنظمات غير الحكومية وغير الهادفة للربح، وهى عديدة ومنتشرة فى أنحاء العالم ويعمل بها ذوو خبرة، ويطبقون مسارات الإحالة وأنظمة المشورة، ويجرون تقييمات الاحتياجات والتدخلات النفسية ويشكلون مجموعات الدعم.

وتسبق هذه الجهود جهود عظيمة أخرى بصدد تأسيس ثقافة مجتمعية مبنية على احترام القيم والمبادىءالانسانية، وتبادل الخبرات ومنع وتجريم التعذيب، واستدامة العمل المجتمعى ثم المؤسساتى لمساندة الناجين من التعذيب وغيره من أشكال العنف، والدفاع عن حقوقهم واستمرارية تقديم الخدمة لهم، وتوعية الشباب بأهمية وقيمة العمل التطوعى فى هذا السياق، وتعزيز مفاهيم قبول الآخر وحق الرأى والحوار.

منال عبد الخالق

٢٠٢٤/١٢/١٤

❋ ❋ ❋ ❋ ❋